السردية والتجريد المفهومي

سعيد بنگراد

هناك ترابط وثيق بين الزمن والنشاط السردي، فالزمن حاضر في الوعي الذي يدركه من خلال آليات السرد وتقنياته، ذلك أن التمثيل المشخص وحده يمنح المجرد وجودا ملموسا في الذاكرة. ولا يتحقق السرد إلا ضمن إواليات الزمن، فهي الفاصل بين الحالات وتحولاتها. إن الأمر يتعلق بالمظهر الذي يؤكد وجود الإنسان في الزمن كما يمكن أن يتجسد في التعاقب والتكرار في الطبيعة والعادات السلوكية. استنادا إلى هذا الترابط، سيكون الزمن وعاء للحدث الإنساني، ولن يكون السرد سوى الوجه المشخص للزمن.

فلا جدوى إذن من التساؤل عن "الجوهر" الزمني، فالزمن مطلق في ذاته، والتتابع داخله مرئي فقط من خلال الانتقال الدائم من "قبل" إلى "بعد" وفق خطية "موضوعية" تُدرك من خلال الحركة في الكائنات والأشياء. إن الشاهد الوحيد على وجوده ليس خاصية من خاصياته، إن ما يؤكد "واقعيته" هو حضوره في النشاط الإنساني، أي إحالته على تحولات يلتقطها الوعي ويحتفي بها أو يخشى وقوعها. "فكل تغيير يقود بالضرورة من حالة إلى أخرى، والأشياء تولد وتتحلل داخل الزمن"(1). وداخل هذا الزمن أيضا نستطيع تبين الجزئيات المكونة للكل والجزء والمنفصل والمتصل والعديم الشكل.

إنها حالات تشير إلى ما يمكن أن يحدث عندما يوضع الزمن في احتكاك مباشر بالفضاء الذي يتحقق داخله (انبثاق الحياة من الزمن)، أو ما يطلق عليه برجسون "عدوى الفضاء في الزمن" (2)، فهذا الاحتكاك هو أداتنا الوحيدة في قياس حجم الزمن وتحديد إيقاعه ومُدَده ووقعه على كل ما يتم داخله؛ إنه قياس للأمداء المحسوسة التي تفصل بين "حالات" الفعل و"تحولاته" وآثاره في الموجودات. فالماضي ليس كما زمنيا ولى إلى الأبد فحسب، بل هو، بالإضافة إلى ذلك، انكماش وتجاعيد وترهل يصيب الأشياء والأجساد ويقلص من حركتها.

ولهذا السبب، لا نستطيع تحديد ما يعود إليه وينبعث منه إلا من خلال إسقاط "إيقاعات" خارجية تحوله إلى كمٍّ موجَّه وقابل للعد. فنحن لا نلتفت إلى حالات المتصل داخله. والمتصل دال، في الفلسفة والإدراك والامتداد الحياتي أيضا، على ما يحضر في الذهن خارج أجزائه. إنه كتلة عديمة الشكل لا يمكن أن تحيل على أي شيء غير ذاتها، تماما كما هي حالة الأصوات قبل التقطيع، وحالة المادة قبل تجليها في أشكال. إن الزمن خارج إيقاعات التقطيع كلي ومطلق وعصي على الإدراك؛ لذلك لا تتحقق الحياة إلا من خلال القدرة على التقاط الشروخ التي تحدثها هذه الإيقاعات لحظة تسريبها لمحكيات "تصف" الحالات والتحولات وتحصي أشكال تحققاتها.

والحاصل، لا وجود للزمن إلا داخل ما تقوله الحكاية وتمثله وتنشر تفاصيله في أحداث معدودة في العدد وفي حالات الافتراض الاستيهامي أيضا. وفي جميع الحالات، "علينا أن نقوم بشيء ما لكي تتحقق الأشياء وتتطور"(3). ذلك أن كل حركة في الفضاء هي بالضرورة انتقال من حالة إلى أخرى، وهي بذلك حاضنة لفعل سردي محتمل. وعلى هذا الأساس، وجب النظر إلى الحكاية باعتبارها "حارسا للزمن، فنحن لا نفكر في هذا الزمن إلا من خلال سرده"(4). إنها الوعاء الذي توضع فيه مخلفات الزمن ومنتجاته.

إن الحكاية، عبر وظيفتها تلك، هي وجهه الوحيد القابل للمعاينة والضبط والتحديد، ففيها تتحدد سلاسل التتابع في الاتجاهين معا. وهو ما يعني أننا لا نستطيع "التعبير عن الزمنية داخل خطاب فينومينولوجي مباشر، فهذه الزمنية تقتضي توسط الخطاب غير المباشر للسرد" (5)، تماما كما لا يمكن تصور "فعل" أو "صفة" إلا عبر إسقاط ممارسة سابقة هي الأساس الذي يمكننا من تصور ممارسة أخرى لاحقة. ذلك أن الحياة تُضَمِّن كل صفة ممكنات هائلة للفعل.

بعبارة أخرى، يعد الصياد والشرطي والحارس الليلي، وكذا الأستاذ والفقيه، صفات تشير إلى ما يمكن أن يصدر عن هؤلاء جميعا (صفات تحتضن سلسلة من الحكايات الممكنة). وهذه الخاصية هي التي تجعل المستوى السردي أداة التوسط الضرورية بين المجرد المفهومي وبين المعنى المتحقق في وضعيات يمكن تقدير حجمها وتلوينها الثقافي.

وهو ما يمكن الكشف عنه من خلال ما يُطلَق عليه "الجملة السردية البسيطة"، فهذه "الجملة تحتضن نشاطا من قبيل "س" يقوم ب "ف" ضمن شروط بعينها"(6). إنها تحيل على ما يشبه الخطاطة التي يتم من خلالها تداول الفعل وتأويله. إنها، بصيغة أخرى، الطريقة الوحيدة للتعرف على الزمن وتحديد اتجاهاته.

إن الأمر يتعلق بما يحيل على أبسط أشكال السلوك الإنساني وأكثرها حضورا في الحياة. فبالإمكان استعادة النشاط الإنساني عبر خطاطة تتضمن كل ممكنات الفعل كما يمكن تصريفه في وضعيات مألوفة، وهو ما يعني أن الأشكال الكونية للسرد لاحقة بالعنصر المتحقق وسابقة عليه في الوجود في الوقت ذاته. وهو أمر تكشف عنه طبيعة الفعل ذاته؛ ذلك أن الفعل، الذي هو أساس كل الخطاطات السلوكية، يعد جزءا من سيرورة تتم في الزمان ويُنظر إليها باعتبارها شكلا من أشكال تحققه، ولكنه هو ذاته لا يمكن أن يُدرك لاحقا إلا إذا وضع في خانة توحد بين كل الذاكرات، حينها سيكون نسخة تشير إلى الاحتمال أكثر من إحالتها على فعل حقيقي.

وهو أمر تفسره سيرورات تشكل النماذج واشتغالها. فالنموذج لاحق بالنسخة، ولكنه هو ما يحددها في الوقت ذاته. بعبارة أخرى، لا يمكن التعرف على فعل باعتباره دالا على الاعتداء إلا إذا كان هناك نموذج يحيل على كل أشكال الاعتداء الممكنة. فقبل أن يصبح هذا الاعتداء حالة معممة، لم يكن سوى حالات معزولة تُدرك في ذاتها. والأمر بتلك الصفة لأن هذا النموذج هو حاصل تكرار لفعل يدل دائما على اعتداء يتحقق في أشكال متنوعة. لذلك تعد العادة، التي تدل على التكرار دائما، مدخلا لفهم الفعل وتأويله، والعادة هي منتج من منتجات الزمن أولا، وهي مهاد الحكايات وبؤرها ثانيا.

وذاك هو السند الذي اعتمدته السرديات المعاصرة من أجل التفكير في خاصيات النص السردي والكشف عن الخطاطات المسبقة التي تتحكم في اشتغاله. لقد نُظر إلى هذا النص دائما باعتباره اقتطاعا لجزئية زمنية قابلة للوصف خارج الامتداد اللامتناهي. "فكل ملفوظ ليس سوى إمكان سردي" يقتضي وجود كمٍّ زمني لكي يتطور في كل الاتجاهات الممكنة، إنه حاضن لسياقات تختلف تحققاتها باختلاف حاضنها الثقافي. أو هي توترات بين الامتداد في الممكنات وبين التقليص المصاحب لكل بناء. ذلك أننا قادرون، استنادا إلى نواته الدائمة (جملة بسيطة دالة على فعل أو واصفة لحالة)، على توليد عدد هائل من القصص، كما تشير إلى ذلك الجملة السردية المشار إليها أعلاه، ولكننا ملزمون، من أجل بناء نص يتمتع بالتماسك والانسجام، القيام بتقليص الممكنات.

وهو أمر تفسره الترابطات الممكنة بين ما يتم من خلال الحدث (السلوك الفعلي للكائنات) وما يلتقطه اللفظي ويخزنه (ما يصبح معنى في الكلمات التي تصف وتلتقط التحولات). إن الأول مادة تتم في اللحظة المرئية في الزمن (إنه يصنف ضمن الوجود العرضي الذي يختفي باختفاء لحظة وقوعه)، أما الثاني فصياغة رمزية تُجرد وتعمم وتؤبد (إنها مفهوم يتم التقاطه خارج الزمن). إن اللغة في هذه الحالة،

وفي جميع الحالات أيضا، لا تصف حدثا فحسب، إنها، بالإضافة إلى ذلك، تؤول وتؤبد حالة وتضعها للتداول خارج وجهها الحدثي.

وبناء عليه، يمكن القول، إن كل المركبات اللفظية هي في نهاية الأمر تقليص لتتابع حدثي يحتمي باللفظي لكي يصبح قابلا للتداول والتعميم، أو هي حالة من حالات التهذيب المرافق لكل تسمية. و"التهذيب" و"التعميم" سمتان من سمات المفهمة، فمن خلالهما نمسك بما يوحد ويقلص، وبواسطتهما نستطيع استعادة كل الذاكرات الممكنة ووضعها للتداول في مفهوم يمكننا من التخلص من العرضي للإمساك بالقاعدة التي هي وحدها أساس التواصل.

وتلك إكراهات المفاهيم ونمط اشتغالها، ذلك أن المفهوم لا يحيل على واقعة، كما تشير إلى ذلك البداهة الإدراكية، إنه "تمثيل رمزي من طبيعة لفظية يتمتع بدلالة عامة تصدق على مجموعة كبيرة من الموضوعات المحسوسة التي تشترك في خصائص بعينها" (7). إنه يعد بذلك وجها مجردا من خلاله نستعيد ما تقدمه الوضعيات الإنسانية ملموسا من خلال حكاية.

والحاصل أننا ننتقل في "النشاط السردي" مما يمكن أن يقدمه الفعل الحدثي إلى ما يضيفه غطاؤه اللفظي، والنظر إليه باعتباره حاجة أولية تقودنا إلى إسقاط تقابل مركزي بين المضمون المفهومي المجرد وبين المحتمل السردي المشخص: فمفهوم الحرية ممكن فقط من خلال وضعيات تتحدث عن الحرية، أي تروي وقائع تصف إنسانا حرا أو تروي تفاصيل قصة رجل باحث عن الحرية. وهو ما يعني أيضا أننا لا يمكن أن نتصور الحرية في غياب نقيضها الاستعباد. وهو يؤكد أن قصة الحرية وثيقة الصلة بقصة الاستعباد. وهذا التقابل بين المفهومين هو الذي يقود إلى تصور فعل لاحق ينقلنا من دوائر الحرية إلى دوائر الاستعباد، أو ينقلنا من الاستعباد إلى الحرية.

يتعلق الأمر بمبادئ ضرورية لفهم كل الحالات التي يتم فيها التمثيل لموضوع ما، وضرورية أيضا من أجل التعرف على أنماط إنتاج المعرفة وتداولها. فهذه المبادئ هي الأساس الذي تعتمده كل أشكال نشر الخبرات عبر العرض لتفاصيل التجربة، لا الاكتفاء بلفظ يدل عليها (لن نعرف الحب مثلا إلا من خلال قصة أشخاص يذوبون عشقا في بعضهم البعض). ذلك أن غياب المفهوم أو انعدامه يفسح المجال للسرد لكي يأتي بالوضعيات التي تكشف عن مضمونه. وهو أمر يمكن معاينته حتى في حالات الحديث اليومي حيث تتم الاستعاضة، بمركب كامل للتعبير عن معنى، حينها يكون التعريف بديلا عن المفهوم الغائب؛ وهي حالة كل اللغات التي لم تستطع بلورة مستويات داخلها لكي تفصل بين ما يكتفي بتدبير الشأن اليومي وبين لغة التجريد العلمي.

لذلك، فالسرد لا يقول الحقيقة، ولكنه لا يكذب، إنه يكتفي بنشر ما قد يقود إلى بلورة نسخة منها أو يحيل على ممكنات تحققها في وضعيات مخصوصة لا تقول إلا ما يراه السارد أو يعتقد في وجوده. إن المحكي التخييلي ليس معنيا بإثبات حقائقه، فحقائقه تبنى خارج مقتضيات التجربة الواقعية، إنه لا يقوم إلا بالتمثيل، وكل تمثيل هو تأويل في الوقت ذاته. أما المفهوم فيحتاج دائما إلى ما يُصَدِّق على مضمونه.

وذاك ما يفصل بينهما، إن المفهوم مجرد وعام ومشترك، أما السرد فمطاط وعرضة لتأويلات المتلقي وإضافاته، إنه جزء من ذاكرة تعج بالوضعيات المشابهة لما يُسرد ويوصف من خلال التمثيل لوضعيات مألوفة في العين وفي الوجدان. إن المفهوم لا يمكن أن يستقيم وجوده إلا إذا استطاع تخليص التجربة من طابعها الزمني: لا يصبح الحب مجردا إلا إذا تخلص من كل حكايات العشاق ليصبح دالا على كل أشكال الحب.

وعلى هذا الأساس، فإن الجملة السردية البسيطة لا تصف حالة معزولة، فالسياق الذي يحتويها يفرض عليها الإحالة على ما هو أوسع من تجربة مخصوصة. وهي بذلك تحيلنا على كل ما له علاقة بالسلوك الممثل داخلها، إن امتدادات هذا السلوك في الذاكرة التي تتلقى وتستوعب وتعيد بناء ما يأتيها عبر اللغة (أي عبر المفاهيم) أمر ضروري لفهم المضمون المسرود. فلا فاصل بين الحكايات إلا في الظاهر، فالموت رديف الحياة والخير لصيق بالشر، والحب هو حاصل الكراهية. فكل حد ليس سوى تكثيف لسلسلة من الحكايات التي تروي تاريخ الانفعال الإنساني.

إنها بذلك "ليست مجرد تتابع لجمل خاصة بالفعل، إنها لا تكتفي بالاستعانة بالشبكة المفهومية المألوفة التي يتحقق من خلالها الفعل، بل تضيف إلى ذلك سمات خطابية تميزها" (8)، إنها في الأصل حاملة لغاية هي ما يشكل قصة مكتفية بذاتها. إن الزمن مشاع بين كل الناس، ولكن الروائيين وحدهم قادرون على تصريفه وفق دفق ينتج معنى. أو هم وحدهم قادرون على خلق حكايات تحكي عن حب هو حب جميع الناس.

وهو ما يعني أن "فهم الأفعال يقتضي التعرف، داخل الفعل ذاته، على بنيات زمنية تستدعي سردا"(9). وهذا ما يبيح لنا التأكيد أن الملفوظات الوصفية البسيطة ذاتها قابلة لأن تتضمن جزئية زمنية وتدرك باعتبارها نقيضا لما كان أو امتدادا له. ذلك أن الصفات هي في الأصل "توقع"، وكل توقع هو إمكان للفعل بالضرورة، فالصياد يحيل في ذاته، وبشكل منفصل عن كل السياقات، على سلسلة من الأفعال المحايثة لسلوكه (يذهب إلى البحر ويلقي صنارته وينتظر السمكة). إنها كذلك في الفعل وفي

كل "حالات الانتظار"، أي ما يشير إلى الممكنات التي يستثيرها التلقي. (وضمن هذه الحالات يمكن تصنيف ما كان يطلق عليه أصحاب نظرية التلقي "اللاتحديد" الذي هو سمة مميزة لكل تحديد لساني لحالة موجود في العالم الخارجي).

وهو ما يعني أن الملفوظات البسيطة والمركبة لا تتضمن سيرورة في الزمن فحسب، أي ما يمكن الكشف عنه من خلال الانتقال من حالة سابقة إلى حالة لاحقة، بشكل مرئي أو غير مرئي، بل تشتمل، في المقام الأول، على بداية مفترضة تقع خارج إكراهات الاستقطابات الثنائية التي يقتضيها وجود زمن مرئي في حدث (افتراض حالة سابقة على قطبية الحب والكراهية).

استنادا إلى ذلك، يستمد الملفوظ طبيعته تلك من محاكاته لحالة الكون ذاته، لا من إحالته على حياة فرد معزول، كما قد يبدو الأمر في الظاهر: إن المطلق الزمني سابق في الوجود على حالات التقطيع فيه، وهذا المطلق ليس حالة قابلة للمعاينة، بل فرضية فقط يمكن من خلالها فهم الشروخ التي تخبر عن المنفصل وتكشف عنه، أو هي كذلك في النصوص الدينية التي تفترض حياة سابقة على الحياة في الأرض، كما هو الشأن مع النص القرآني الذي يشير إلى خلق الإنسان خليفة لله في الأرض، أي خلقا لزمنية تلغي المطلق في كل شيء.

لذلك، فإن مصدر التقابل ليس اختلافا بين حدين متقابلين، بل مصدره وجود وعاء زمني يتضمن لحظتين مختلفتين: حالة سابقة تعد شرطا ضروريا لفهم حالة حاضرة. وتشكل الحالتان معا الشرط الضروري لإسقاط حالة ثالثة هي ما يشكل المضمون القصصي الذي يقوم على وجود أحداث تتم داخل تتابع هو بالضرورة من طبيعة زمنية، فهو ينقلنا من حالة إلى حالة. إن الأمر لا يتعلق برصد لأحداث، بل يشير إلى تنظيم لعالم مكتف بذاته، وذاك هو المضاف الفني في كل الأعمال السردية.

وهو ما يعني، بعبارة أخرى، أن السرد هو في المقام الأول احتفاء بالخبرة الإنسانية وهي تتسلل إلى ثنايا الزمن وتستوطنه. فما يميز هذه الخبرة هو امتدادها في الزمن. فسواء تعلق الأمر بالمحكيات التخييلية بكل أنواعها (الرواية والقصة والمسرح والسينما والأسطورة والخرافة وكل الحكايات الشعبية وما شابهها) أو تعلق بما يعود إلى العرْض التاريخي للأحداث، أو تعلق فقط بتنظيم تفاصيل المعيش اليومي، فإن الثابت في هذه الأشكال التعبيرية هو "الطابع الزمني للتجربة الإنسانية، ذلك أن العالم الممثل في الأعمال السردية هو عالم زمني" (10).

وبعبارة أخرى، يعد السرد، من حيث هو تشخيص للزمن، أداة توسط مثلى بين زمن فيزيائي هو زمن العالم الخارجي، وزمن الذات التي تحاول من خلال هذا السرد إيجاد موقع لها في زمن العالم،

إنه الرابط التوسطي بين الحد المجرد وبين سياقات متجسدة في فعل. إن الزمن ليس مدة "جوفاء" بل هو "أثاث" حياتي يتشكل من ندم وحسرة وأمل وذكريات وإحباطات ومجد وانتصارات وهزائم.

وهذا ما دفع كريماص، وهو أحد أبرز الذين نظروا للنماذج السردية الكونية، إلى إدراج مفهوم السردية ضمن كل الخطابات، بما فيها الخطابات العلمية، أو تلك التي تختص بوصفات إعداد الحساء. فبالإمكان، في تصوره، استعادة النشاط الإنساني المدرج ضمن وضعيات بعينها، من خلال خطاطة تتضمن كل ممكنات الفعل كما يمكن تصريفها في وضعيات مألوفة. وهو ما يعني وجود ما يشبه الأشكال الكونية المنظمة للنشاط الإنساني.

إنها أشكال قابلة للصياغة من خلال الفصل بين العلاقات المجردة ذات الطابع المنطقي (التقابلات بين الحدود) وبين العمليات التي تشير دائما إلى وجود ذات تأخذ على عاتقها إمكانية تشخيص المجرد في وضعيات بعينها، أي تحويل العلاقات إلى عمليات (التقابل المشار إليه أعلاه بين الحب المجرد والحب في حكاية).

إن الفعل، استنادا إلى ذلك، ليس فرديا، كما يبدو في الظاهر، إنه يعبر عن حالة تفاعل الذات التي "تفعل" مع المحيط الاجتماعي الذي يستوعب هذا الفعل ويقومه ويدفع إليه أو يشجعه أو يعوق تحققه. وذاك هو مضمون العادة باعتبارها سلسلة من الأفعال الممكنة، أو باعتبارها خزانا لزمنية موضوعة للاستثمار الحياتي والفني.

وهو ما يعني أن الذاكرة الفردية ليست كذلك إلا إذا كانت جزءا من ذاكرة كلية، ودون ذلك لا يمكن الحديث عن قصة، فالقصة التي لا يفهمها سوى صاحبها لا يمكن أن تصنف ضمن الزمنية الإنسانية. والخلاصة أن السرد يساعدنا على إدراج تجربتنا الفردية المحدودة في الزمان ضمن ذاكرة أوسع وأشمل هي ذاكرة الإنسانية جمعاء.

هوامش

1- Paul Ricœur, Temps et récit 3, éd Seuil, 1985, p.33

2- نفسه ص22 3- نفسه ص 34 4- نفسه ص 435 5- نفسه ص435

6- Paul Ricœur, Temps et récit 1, éd Seuil, 1983,p.111

7- Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, éd Larousse-Bordas-HER, 1999, concept

8- Paul Ricœur, Temps et récit 1,p.111-

9- نفسه ص 117 10- نفسه ، ص 17